فكرة المجتمع المدني
عند أرسطو

د.صاري رشيدة*

******

مقدمة:

إن مصطلح المجتمع المدني (Société Civile) أحد التعابير البارزة والمنتشرة في الخطاب السياسي المعاصر، حيث ارتبط بتحولات جديدة شهدها العالم في الحقبة المعاصرة، ولكن كيف كان قيام الحضارة؟ ألم يساهم المجتمع المدني في قيامها وألم يعيش الناس في تجمعات محكومة بالقانون ومحمية من سلطة الدولة؟

في الحقيقة، إن فكرة المجتمع المدني يمكن العثور عليها في الموروث الكلاسيكي أي الجماعات المنظمة سياسيا (المتمدّنة)، ففي الفكر اليوناني ظهرت الفكرة "المجتمع المدني" الذي حاول أن يؤسس "لدولة المدنية" حتى ينظم العلاقات بين الأفراد والأسرة، وبذلك تأمل الفلاسفة الكبار أمثال أفلاطون (Platon) وأرسطو (Aristote) في العلاقات الأساسية كالحب والصداقة والزواج والمواطنة وواجبات العبيد ومسؤوليات السادة، ومن المناقشات النظرية صيغت المقولات السياسية للمجتمع المدني، فكيف أسس أرسطو (384-322 ق م) للمجتمع المدني؟ وما تنظيمه للعلاقات بين البشر؟

يعتبر أرسطو من منظري علم السياسة، حاول من خلال كتابه "السياسة" أن يؤسس للفرد والدولة الأرستقراطية، ونظر إلى الجماعة السياسية (La Communauté Politique) أو المدينة أنها "ليست ثمرة حيلة ونتاج الاتفاق الاعتباطي بل التتويج الطبيعي والضروري لنمو تدريجي تعتبر كل مرحلة من مراحله بحد ذاتها طبيعية وضرورية."[1]

يبدأ النظام عند أرسطو بالأسرة فهي أول جماعة كونتها الطبيعة والخلية الأولى لبناء المجتمع أو الدولة إنها الوحدة الإنتاجية للعالم القديم ويقول في ذلك من الضروري اجتماع كائنين...أريد أن أقول اجتماع الجنسين للتناسل، ففي الإنسان كما في الحيوانات الأخرى وفي

* أستاذة بجامعة وهران2- عضو في مختبر الأبعاد القيمية للتحولات الفكرية والسياسية بالجزائر.

ABSTRACT: The societe civil is concept used in the speech politic but we find this concept in politic for Aristotel. He tried to organize live intern the cite ، since the man is animal politic gift for reason (logos). This man have the natural tendency to live in community he begam from family between (man women ، father child ، maitre slave) ، in cite a free man found this independence but he must collaborate a happy live and interest general four state.

Keywords: societe civil ، state ، community ، family ، interest general.

[1] حان جاك شوفالييه: تاريخ الفكر السياسي تر: محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع لبنان، ط 4، 1998، ص 77.

النباتات نزعة طبيعية إلى أن يخلّف بعده موجودا على صورته... إنما الطبيعة وهي ترمي إلى البقاء هي التي قد خلقت بعض الكائنات للإمرة وبعضها للطاعة".[1]

اعتبر أرسطو الاجتماع أمر طبيعي ففي الإنسان نزعة حب البقاء وحتى يخلّف الإنسان نظم العلاقات بين البشر ورفض وانتقد شيوعية أفلاطون للأطفال والنساء وركز على العلاقات الدائمة ولقد أعطى قيمة أساسية للحياة العائلية فالزواج من أقوى دعائم التضامن من بين وحدات المجتمع فكانت الأسرة الوحدة الأساسية للمدينة فهي مكونة من الأباء والأبناء والعبيد.

ولكن عناصر المدينة متمايزة نوعا فيما بينها لأن الناس يختلفون في قدراتهم العقلية والبدنية. ولهذا يقول "الطبيعة إنما هي التي أرادت أن الكائن الموصوف بالعقل والتبصر يأمر بوصفه سيدا، كما أن الطبيعة هي أيضا التي أرادت أن الكائن الكفء بخصائصه الجثمانية لتنفيذ الأوامر يطيع بوصفه عبدا وبهذا تمتزج منفعة السيد ومنفعة العبد.[2]

تعكس هذه النظرة الأرسطية كثيرا من العنصرية أو العصبية اليونانية فالمشكلة لا تكمن في الاعتراف باختلاف الناس في قدراتهم بل في الاسراف في اعتبار العبيد أقل من طبيعة الانسان العادي وتبنى العلاقات الإنسانية لتلبية الحاجات المادية عند أرسطو، فكل فرد في الأسرة يحتاج إلى الأخر وهذا ما يبرر مدنيّة المجتمع، وبتجمع عدة أسر تكون القرية انها تقوم بوظائف أوسع نطاقا وأكثر تنوعا من الأسرة لأن طبيعة تكوينها تسمح بتقسيم العمل.

وأخيرا ظهرت الجماعة المشكلة من عدة قرى وهي "المدينة" إنها المجتمع الكامل والقادر على كفاية ذاتها.

"كل دولة هي بالبديهة اجتماع وكل اجتماع لا يتألف إلا لخير ما مادام الناس أيا كانوا لا يعلمون أبدا شيئا الا وهم يقصدون إلى ما يظهر لهم أنه خير. فبيّن إذن أن كل الاجتماعات ترمي إلى خير من نوع ما، وأن أهم الخيرات كلها يجب أن يكون موضوع أهم الاجتماعات ذلك يشمل الآخر كلها، وهذا هو الذي يسمى بالضبط الدولة أو الاجتماع السياسي.[3]

تنشأ التجمعات حسب أغراض أو غايات محددة (مبدأ الغائية) فالمدينة لا توجد بفعل العرف فحسب بل انها مجتمع طبيعي وجدت من أجل الخير الأقصى للإنسان فهي تظهر من أجل تلبية أغراض الحياة ولكنها تتطور من أجل حياة صالحة خيرة والمدينة عند أرسطو هي "الرابطة أو الاجتماع الأكثر شمولا وسيادة على الروابط الإنسانية كلها لأنها تهدف إلى أن تشمل الغايات الإنسانية كلها وتسود عليها، إن العائلة أو القرية توجد من أجل "مجرد الحياة" لكن المدينة توجد من أجل الحياة الصالحة وهي الاكتمال التام والمكتفي ذاتيا للتطور الأخلاق الإنساني".[4]

---

[1] أرسطو طاليس: السياسة تر بارتلمي سانتهليز تر: أحمد لطفي السيد، الهيئة المصرية للكتاب القاهرة، د.ط 2008، ص 92-93.

[2] المصدر نفسه، ص 93.

[3] أرسطو طاليس: السياسة، ص 91.

[4] جون إهرنبرغ: المجتمع المدني التاريخ النقدي للفكرة تر: علي حاكم صالح، حسن ناظم مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2008، ص 41.

ولكن ماهي العناصر الضرورية حتى تكون المدينة مستقلة وتكفل نفسها بنفسها؟

يضع أرسطو ستة عناصر أساسية لوجود المدينة وهي المواد الغذائية التي يوفرها الزراع والتجار والصناع، الفنون، الأسلحة، المال الذي يوفره الأغنياء، العبادة والطقوس، القضاء وإدارة المصالح العامة يشرف عليه الحكام ورجال القضاء يقول أرسطو: "لنعّد الأشياء أعيانها. ...فبديا المواد الغذائية ثم الفنون وما يتعلق بها من الأشياء التي لا غنى عنها للحياة... ثم الأسلحة التي لا غنى عنها للاجتماع عنها لأجل تأييد السلطة العامة في داخله ضد العصاة ولأجل دفع الأعداء من الخارج.. ورابعا سعة ما من الثروات سواء من الحاجات الداخلية لأجل الحروب وخامسا العبادة الإلهية أو كم يسمونها الكهنوت وأخيرا وهذا بلا جدال هو الأهم تقرير المرافق العامة والقضاء في الخصومات الفردية"[1].

أكد أرسطو على هذه العناصر فالمدينة لا تستغني على أحد منها ويكون الاجتماع بين أناس قادرين على القيام بأعمال محددة " إن الاجتماع الذي يؤلف المدينة ليس اجتماعا كيفما اتفق انما هو اجتماع أناس قادرين على القيام بجميع حاجات معيشتهم فاذا لم يتوافر ركن من الأركان التي عددناها أنفا فمن ثم يكون محالا ان يقوم الاجتماع بكفاية نفسه"[2].

والمدينة سابقة على أجزائها المتمثلة في الأفراد والأسر والقرى ويقول في ذلك "لا يمكن الشك في أن الدولة هي بالطبع فوق العائلة وفوق كل فرد لأن الكل هو بالضرورة فوق الجزء مادام أنه متى فسد الكل فليس بعد من جزء"[3] إن المدينة ككل تكفي بنفسها ولكن إذا فصلنا كل فرد عن الدولة فلن يكفي بنفسه ومن ثم يلزم أن يكون مرتبطا بالدولة ككل، وتوجد المدينة لتحقيق خير أما أن غرضها أخلاقي بالدرجة الأولى وبذلك اعتبر أرسطو السياسة فرعا من الأخلاق وتتمثل وظيفتها في نشر الفضيلة وتعليم المواطن الأخلاق ومنه إن المدينة جهاز أخلاقي.

يجد الأفراد في المدينة " ملكات جديدة حياة جديدة وبنفس الوقت هوية جديدة هويتهم كمواطنين (Polites) أعضاء في المدينة إن هذا الانتماء هو الغاية الطبيعية للنمو الفردي، إنه يعطى الانسان معناه الحقيقي، ويسمح له بتحقيق طبيعته الحقيقية. لأن الانسان من حيث ما هيته، كائن خلق لكي يعيش بشكل كامل، ولا يتفتح بشكل كامل الا في المدينة".[4]

والانسان عند أرسطو حيوان سياسي واجتماعي يحتاج الى الأخرين من أجل أن يعيش فهو مؤهل بفطرية بطبيعته ليحيا حياة سياسية واجتماعية فعرف الانسان بـ الحيوان السياسي الذي يمتلك اللوجوس.

ويقول في ذلك:" إذا كان الانسان أشد قابلية الى ما لانهاية الاجتماع من النحل ومن سائر الحيوانات التي تعيش قطعانا فذلك بالبديهة، كما نبهت اليه كثيرا لأن الطبع لا يفعل شيئا

[1] أرسطو طاليس: سياسة، ص 257.
[2] المصدر نفسه، ص، 257.
[3] المصدر نفسه، ص 96.
[4] جان جاك شوفالييه: تاريخ الفكر السياسي، ص 78.

عبثا. وأنه ليختص الانسان بالنطق...لكن النطق انها يكون للتعبير عن الخير والشر وبالتّبع عن العادل والظالم والانسان هذه الخصوصية من بين سائر الحيوانات أنه وحده يدرك الخير والشر والعادل والظالم وكل الأحاسيس من هذا القبيل التي باجتماعها تؤلف بالضبط العائلة والدولة".[1]

يتميز الانسان بخصوصية الكلام فهو الكائن الوحيد الذي يمتلك لغة الوحيد الذي يفكر ويعبر عن أفكاره ربما نعترض على هذه المسلمة بالقول إن بعض الحيوانات تتواصل فيما بينها ويرد أرسطو على ذلك بضرورة التمييز بين الصوت (Phôné Voix) واللغة(Logos) .

تمتلك الحيوانات الإحساس وتعبر بالصوت عن الألم والفرح، أما الانسان فيمتلك لغة وهي موجودة بهدف إبداع النافع والمضر(L'utile et le nuisible) ومن ثم العادل والظالم (Juste et l'injuste) هذا ما يميز الانسان عن الكائنات الأخرى لأن وظيفته النوعية هي العقل. إن اللغة تعبر عن المعقول عن الخير والشر، عن النافع والضار وهي مفاهيم أخلاقية أخرى، أي بكل ما يتصل بعلاقتنا بالغير، فاللغة حديث يتضمن التفكير انها آلة نوعية خاصة بالإنسان حيث تجعله حيوان أخلاقي إنها أساس العلاقات بحكم طبيعة الانسان الذي يكون علاقات مع الآخرين ولذا يقول "إن هذا الذي لا يستطيع أن يكون عضوا في الدولة إنما هو بهيمة أو إله".[2]

جعل أرسطو للدولة غاية لقد وجدت من أجل العيش بصفة مشتركة بأفضل طريقة ممكنة ويتحقق ذلك بالعدالة، فالطبع هو الدافع لتأسيس المجتمع المدني على أساس أخلاقي والعدالة هي قاعدة الاجتماع السياسي حيث يقول " فالطبع اذن يدفع الناس بغرائزهم إلى الاجتماع السياسي.....لكن الانسان قد تلقى عن الطبع أسلحة العدل والفضيلة التي ينبغي أن يستعملها ضد شهواته الخبيثة فبدون فضيلة يكون هو أكثر ما يكون فسادا وافتراسا فالعدل ضرورة اجتماعية لأن الحق هو قاعدة الاجتماع السياسي وتقرير العادل هو ذلك الذي يرتب الحق".[3]

في ضوء هذه الاعتبارات قام أرسطو بدراسة الدولة دراسة اجتماعية انها من عمل الطبيعة واعتبرها الأقدر على رعاية الأخلاق وحمايتها لأن مهمة الدولة الرئيسية في غرس الفضيلة في الأفراد وتعليمهم كيف يكونون فضلاء إن هناك "تأكيد مستمر على أن حياة الجماعية تعتبر طبيعة وضرورية للفرد حيث أن هناك غريزة اجتماعية لدى جميع الأفراد بالطبيعة للتجمع، والدولة ليست مجموعة أفراد فحسب ولكنها أكثر من ذلك وحدة عضوية ترتبط أجزاؤها ارتباط وثيقا ولابد أن تقوم هذه الوحدة على نوع من الضرورة لتكتسب صفة الدوام والاستقرار إنما الوسيط الطبيعي للإنسان حيث يستطيع كفرد أن ينتمي ملكاته ويحسن أحواله".[4]

[1] أرسطو طاليس: السياسة، ص 95-96.
[2] المصدر نفسه، ص 96.
[3] أرسطو طاليس: السياسة، ص 96
[4] بخيث محمد حسن محدي: الفلسفة الإغريقية ومدارسها من طاليس الى أبروقوس، عالم الكتب الحديث، الأردن ط 1، 2015، ص 271-272

إن مدينة الانسان جعلت أرسطو يركز على كيفية تكوين العلاقات الإنسانية لوجود دافع متأصل لدى الجميع للارتباط والاتصال بالغير حتى نتبادل ضروب المنافع والأفكار، فالعمل يقع في صميم المجتمع المدني.

تتكون العلاقات الأخلاقية بداية من الأسرة، الخلية الأولى في بناء المجتمع، وتتشكل الأسرة من ثلاثة مجموعات من العلاقات الأخلاقية: علاقة السيد والعبد، الزوج، الزوجة، الأباء والأبناء ولكن كيف كانت تمارس السلطة داخل البيت؟

يبني أرسطو علاقات الأسرة بدافع الحاجة واللامساواة بما أن البشرية تنقسم إلى سادة وعبيد والانسان اليوناني الحر يمارس السلطة على العبيد والنساء لأن الطبيعة ميزته بالعقل وبذلك فهو يتمتع بحق السيطرة والقيادة والتوجيه، أما العبد فعليه الطاعة ويقول: "ولم ينخدع الشعراء إذ يقولون أجل للأغريقي على المتوحش حت إلا مرة مادام أن الطبع قد أراد أن يكون المتوحش والعبد سيأن...هذان الاجتماعان الأولان بين السيد والعبد وبين الزوج والزوجة هما قاعدتا العائلة وقد أحسن هيزيود إذ قال في هذا البيت: ' البيت ثم المرأة والثور الحارث' ".[1]

يظهر من هذا ان هناك احتقار للرق وجعل العبيد في مرتبة أدنى إنهم مجرد ألة تقوم بوظائف وتساعد على تدبير الشؤون المنزلية، إنهم لا يتمتعون بأي حق من حقوق الرجل الحر ولا يستطيعون إدارة شؤون الدولة ولكن علاقتهم بالسيد أخلاقية لأنهم يساهمون في سعادته: " علم الحيازة جزء من العلم المنزلي مادام أنه بغير الأشياء التي هي من الضرورة الأولى لا يستطيع الناس ان يعيشوا سعداء....كذلك العلم المنزلي ينبغي أن يكون له ادواته. وان من تلك الأدوات ما هو غير حي ومنها ما هو حي وعلى القاعدة عينها يمكن أن يقال إن ملكية ليست الا أداة للمعيشة، وأن الثروة متعددة الأدوات وأن العبد ملكية حية، والعامل بما هو أداة هو أول الأدوات جميعا[2].

يساهم الرق في الحياة الاقتصادية فهو نظام للخدمة المنزلية، إنه آلة حية يعاون على تدبير الحياة داخل المنزل، حيث أن "أرسطو يجرده من الإنسانية، بما أن المواطن الحر لا يستطيع ان يقوم بأعمال اليدوية" والصعبة لذا فهو يوكل للعبد هذه الأعمال.

إن الرق في فلسفته طبيعي أساسي شرعي وضروري فهو الدعامة التي يرتكز عليها المجتمع في معيشته وفي ذلك يقول: " لو كانت القوس تلعب وحدها على القيثارة لأستغني أرباب الأعمال عن العمال والسادة عن العبيد. فالأدوات بالمعني الخاص هي إذن أدوات إنتاج، أما الملكية فهي على الضدّ من ذلك بالبساطة أداة استعمال فحسب".[3] كان الرق نظاما مقررا في اليونان القديمة وحاول أرسطو تبريره من خلال تشكيل شبكة من الاعتماد المتبادل لأن ما يربط السيد والعبيد

[1] أرسطو طاليس: السياسة، ص 93.
[2] المصدر نفسه، ص 99.
[3] أرسطو طاليس: السياسة، ص 99.

هي وحدة المصالح والصداقة فهما "مترابطان معا في شبكة من الاعتماد المتبادل تبلغ عمقا أبعد من العجز المنزلي أو كسل الثريّ فالعبيد ساهموا في تطوير السادة بتخلصهم من العمل المنزلي والسادة ساهموا في تطوير العبيد بتوفير الإرشاد الأخلاقي والرؤية العقلانية لهم وفي ذلك منفعة للجانبين وحفاظ عليهما"[1] ويستوجب هذا أن يحسن السيد استعمال سلطته على العبيد وأن يتفاهم معه قبل أن يأمره وحتى إن أمكن تكوينه علاقة صداقة ويقول "سلطة السيد على العبد هي كذلك عادلة ونافعة وهذا لا يمنع أن سوء استعمال هذه السلطة شؤم على الطرفين. ان منفعة الجزء هي منفعة الكل ومنفعة الجسم هي منفعة الروح، وإن العبد لهو جزء السيد، وإنه كجزء حي من جسمه وان يكن منفصلا عنه.... توجد منفعة مشتركة ورعاية متبادلة، ويكون الأمر على غير ذلك (تسود العداوة وتضارب في المصالح) متى كان القانون ومجرد القوة هما اللذين جعلاهما ما هما أحدها والأخر".[2]

وكما كان السيد يفرض سلطته على العبد فرضها أيضا على الزوجة والأفراد، ولكن باعتبارهم أشخاص أحرار فالأولاد هم الذين سيكونون يوما أعضاء الدولة " والرجل حسب أرسطو ماعدا استثناءات مضادة للطبع هو الذي يأمر دون المرأة كما أن الكائن الأكبر والأكمل هو الذي يتأمر على الأصغر والأنقص"[3].

أن تفوق الخلقي للزوج (السيد) يقوم على أساس تأدية غرض أخلاقي لأن الاعتناء بالأسرة يقود حتما الى الاعتناء بالدولة" فينبغي اذن أن تكون تربية الأولاد والنساء متوافقة مع النظام السياسي إذا كان يعني حقيقة بأن يكون الأولاد والنساء حسني السلوك حتى تكون الدولة كما يكون"[4].

حاول أرسطو من خلال نظرية الدولة أن يقدم مميزاتها لأنها الميدان الوحيد للحياة المشتركة بين الناس وكانت نظرته واقعية ترتكز على الحاجة واللامساواة لأن أعضائها متفاوتين في القدرات الأمر الذي يمكنهم من ان يخدم بعضهم البعض ويحققوا حياة فاضلة عبر تبادل الخدمات وحتى يتحقق ذلك منح أرسطو عكس افلاطون الملكية الخاصة للإنسان بما انه يحب التملك ويهتم بما هو له ويرفض الملكية المشتركة. إن المشكلة لا تتمثل في شؤون الخاصة بل في الإفراط في حب الذات حيث يقول: "إن شره الناس غير قابل من أن يشبع فهم في بادئ الأمر يقنعون بفلسين فمتى كان لهم من ذلك رأس المال نمت حاجاتهم بدون انقطاع حتى لا تعرف مناهم بعد حدودا"[5]. وحتى يعدل من الملكية الخاصة اقترح أن يكون" لكل إمرئ ميدان

[1] جون إهرنبرغ: المجتمع المدني التاريخ النقدي للفكرة، ص 43.
[2] أرسطو طاليس: السياسة، ص 106.
[3] المصدر نفسه، ص 121.
[4] المصدر نفسه، ص 125.
[5] أرسطو طاليس السياسة، ص 152.

مصلحتهم الخاص والمنفصل فلن يكون هناك الأساس نفسه لنزاعات وسوف يزداد مقدار المصلحة لأن كل رجل سيشعر بأنه يكرس نفسه لما هو ملك له"[1].

كانت المدينة مختلف لدى أرسطو وبناها من خلال الأسرة الموحدة التي خلقت إمكانية الحياة المشتركة فالاختلاف هو الذي يعطي قوة للدولة، اما المواطن فهو الانسان الحر العنصر الأساسي للمجتمع المدني ولا تكفي الولادة أو الإقامة في المدينة حتى يكون المرء مواطنا بل انه " الفرد الذي يمكن أن يكون له في الجمعية العمومية وفي المحكمة صوت في المداولة أيا كان مع ذلك شكل الدولة التي هو عضو فيها".[2] ليست جميع الفئات تتمتع بحق المواطنة لدى أرسطو بل يجب أن يكون مواطنوه أحرار يكرسون حياتهم لخدمة الدولة ويصر على العضوية الكاملة أي يجب أن يكونوا جنودا في شبابهم وكأعضاء في المجتمع يشاركون في مجالس التشريعية وفي وظائف قضائية هدفهم هو تحقيق المصلحة العامة أي رفاهية الجماعة ككل وإن اعتمدت على المصلحة الخاصة "لأن المجتمع السياسي لا يرمي الى منفعة اللحظة الراهنة بل الى ما هو نافع للحياة باسرها".[3] إن الغرض من المدينة هو الحياة الخيرة وتحقيق صالح العام، وهكذا فان المجتمع المدني هو الجماعة المتشكلة سياسيا والتي تنظم المجالات المنفصلة للحياة، حاول أرسطو أن يجمع ميادين مختلفة داخل الحياة المشتركة للمدينة.

صحيح أننا لا نستطيع تطبيق ما وصل اليه أرسطو الى مجتمعنا لقد أسس للإنسان الحر والأستقراطي ولكن لماذا لا نواعي الصالح العام ولنأسس لمجتمع قادر على اتخاذ القرار السياسي الذي يراعي المجتمع والدولة معًا.

البيبليوغرافيا:

1. أرسطو طاليس: السياسة، تر: بارتلمى سانتهليز تر: الى العربية أحمد لطفي السيد الهيئة المصرية للكتاب القاهرة، د.ط، 2008.
2. حان جاك شوفالييه: تاريخ الفكر السياسي، تر: محمد عرب صاصيلا المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع لبنان، ط 4، 1998.
3. جون إهرنبرغ: المجتمع المدني التاريخ النقدي للفكرة تر، علي حاكم صالح، حسن ناظم مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2008.

بخيث محمد حسن مهدي: الفلسفة الإغريقية ومدارسها من طاليس إلى أبروقوس، عالم الكتب الحديث الأردن، ط1، 2015.

[1] جون إهرنبرغ: المجتمع المدني، ص 50.
[2] أرسطو طاليس، السياسة، ص 183.
[3] جون اهرنبرغ: المجتمع المدني، ص65.